باحثة البادية

لمناسبة ذكراها الثانية والثلاثين

الأستاذ عبد الجواد سليمان

أول ما نوحي به إلينا ذكرى باحثة البادية (ملك حفني ناصف) من معان وعبر ، إنما هو النهضة النسائية في مصر في معناها الوطني الصادق .

فلقد كانت رحمها الله ، أول فتاة مصرية حصلت على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ وعمرها إذ ذاك لا يتجاوز الثالثة عشرة ، ثم انتقلت إلى القسم العالي بالمدرسة السنية ، وحصلت على شهادته العالية ، وعملت مدرسة بالمدارس الأميرية .

لقد كانت باحثة البادية مثالاً صادقاً ونموذجاً كاملاً للفتاة المصرية في طباعها ووطنيتها ؛ فالظرف المصري أصيل في طبعها ، إذ كان يتمثل في كتابتها وفي نكتها اللاذعة التي تسعفها بها بديهتها الحاضرة وسرعة خاطرها ، والتي يزينها تهكم لا مرارة فيه في مثل قولها « فما أنفر زوج الفرنجيين على التفنن ، ولو أنصفوا لعينوا زوج كل اثنتين سياسياً أو ناظراً للمستعمرات ؛ ولكن الذي يؤسف له أنا ليس لنا مستعمرات » وفي مثل قولها (يقول لنا الرجال ويجزمون : إنكن خلقتن للبيت ، ونحن خلقنا لجلب المعاش ، فليت شعري أي فرمان صدر بذلك من عند الله ؟ إنهم لو أنصفوا ولم يتحيزوا ، لما عيرونا بأنا قليلات النبوغ ، وأنه لم يسمع بأن إحدانا فيرت قاعدة في الحساب والهندسة مثلاً ، وليتفضل أحدهم بإخبارنا عما استنبطه من تلك القواعد ، فنحن نعترف لرجال الاختراع والاكتشاف بعظيم أعمالهم ، ولكني لو كنت ركبت المركب مع (خريستوف كلومب) لما تعذر علي أنا أيضاً أن أكتشف أمريكا .

أما وطنيتها فتتمثل في حبها لكل ما هو مصري ورفضها أن تأخذ من مدنية الغرب إلا ما هو ضروري ، وبشرط أن يصبغ بالصبغة المصرية ويطبع بطابعها . كقولها : « ما أحلى السمرة الجاذبة ، لو فهمنا معناها ، إنها جميلة لأنها مصرية ، ولو لم يكن فيها غير المصرية والطبيعة لكفى » .

وكقولها : « إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا ألا نقتبس من المدنية الأوربية إلا الضروري النافع بعد تصييره حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا ، نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل ، نقتبس منها أساليب التعليم والتربية — وإنما لا يجوز في عرف الشرف والاستقلال أن نندمج في الغرب فنقضي على ما بقي لنا من القوة الضعيفة أمام قوته الكاسحة الهائلة » .

لقد تأثرت باحثة البادية ببيئتها تأثراً بعيداً فتخرجت كاتبة وشاعرة وناقدة وخطيبة ومصلحة ؛ فأبوها المرحوم (حفني بك ناصف) العالم اللغوي والكاتب البليغ والشاعر الفكه كبير مفتشي اللغة العربية بمصر ، وزوجها العربي الصميم المرحوم (عبد الستار بك الباسل) من بيت مجد أثيل وحسب عربي عريق وهو من وجهاء قبيلة الرماح بالفيوم .

وقد ديجت براعتها كثيراً من المقالات المبلبلة والبحوث السيقة والرسائل الممتعة التي امتازت بالسلاسة والوضوح والتي خصت بها صحيفتي : (المؤيد) و(المحروسة) ، وحسبها دليلاً على بلاغتها ، أن يشهد لها أمراء البيان في مصر ، من هؤلاء أحمد لطفي السيد باشا بقوله فيها (أما انتقاد رسائلها من جهة صناعة الكتابة فحسبي أن أقرر من غير محاباة أنها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر) .

والشيخ عبد الكريم سلمان بقوله (إني رأيت في كتابة هذه السيدة حدة في بعض الموضوعات ، وكأنها مدفوعة في حدتها لامتلاك الموضوع نفسها وحواسها » وأحمد زكي باشا بقوله (إنها أعادت لنا ذلك العصر الذهبي الذي كانت فيه فوات العمائب يناضلن أرباب اليراعة في ميداني الكتابة والخطابة) .

وحافظ بك إبراهيم بقوله :

فله درك إن نثرت ودر حفني إن نثر

ولقد توفرت لها شروط النقد من سلامة الفطرة وقوة الملاحظة وسعة الاطلاع ، فكان نقدها ينصب على المجتمع المصري الذي ظلم المرأة وسلبها حقوقها من قولها في ذلك (المرأة المصرية مسلوبة الحق مظلومة في كل أدوار حياتها ، تراها يتقاسم منها

حتى وهي جنين ، فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الحياة مقطبة والصدور منقبضة والثغور صامتة) .

وقولها في استبداد الرجال بالنساء : (بعض النساء يهددن بالفراق إذا لم يعطين أزواجهن ما يطلبون ، ويذكر لمن الزواج إرهاباً ، فأي الأمرين يختار الزوجة الباذلة ؟ المرأة مظلومة دائماً ، إذا كانت فقيرة لا يرغب فيها ، وإن كانت وارثة يطمع في مالها ، والوارثة مظلومة أيضاً ، فإما ألا تتزوج لتأمن الطمع والطامعين ، وإما أن تتزوج على غير بصيرة كعادتنا) .

وقولها ساخطة على سياسة بعض الآباء (لا أحب الرجل يتكبر على أهله وأولاده فيظهر لهم مظهر الجبار العنيف ويظن أن ذلك استجلاب للهيبة وهو لا يعلم بما يشعرون ، وهذا التجبر من جانب الأب يضعف الأخلاق في الطفل ويفسدها إذ يربي فيه الجبن والذل ثم الاستبداد متى كبر) .

والإصلاح عادة وليد النقد ، وباحثة البادية قد حاولت الاصلاح عن طريق النقد ، فرأيناها تنادي بالمساواة بين الرجل والمرأة بقلبها ولسانها ؛ فمن خطبها في نادي حزب الأمة (والأوفق أن تسعى للوفاق جهدنا ونزيل سوء التفاهم والتحزب لتحل بدلهما الثقة والإنصاف ولنبحث أولاً في نقط الخلاف) .

أما شعرها فهو عصارة روحها ولوب نفسها ، إذ تتغلب عليه خفة الروح تارة والتهكم الشديد تارة أخرى ؛ هذا إلى بعده عن التقيد وذخره بالمعاني ودلالته على نضوج الفكر ، ومنه في رثاء عائشة التيمورية :

ألا يا موت ويحك لم تراع ... حقوقاً للطروس ولا اليراع
تركت الكتب باكية بكاء ... يشيب الطفل في مهد الرضاع
فتب يا قلب لا تك في جمود ... وزد يا دمع لا تك في امتناع
سبقت بعد عائشة حيارى ... كسرب في الفلاة بغير راع

ومنه في الفتاة :

إن الفتاة حديقة وحياؤها ... كالماء موقوفاً عليه بقاؤها
بفروعها تجري الحياة فتكتسي ... حللا يروق الناظرين رواؤها
لا خير في حسن الفتاة وعلمها ... إن كان في غير الصلاح رضاؤها
فجمالها وقف عليها إنما ... للناس فيها ديمها ووفاؤها

وفي الفتاة تقول :

بعد الفتاة مقامها ... في البيت لا في المعمل
والمرء يعمل في الحقو ... ل وعرسه في المنزل

ومن قولها في السفور والحجاب رد على شوقي بك :

أما السفور فحكمه ... في الشرع ليس بمعضل
ذهب الأئمة فيه بين ... محرم ومحلل
ويجوز بالإجماع منهم ... عند قصد تأهل
ليس النقاب هو الحجا ... ب تقصري أو طول
فإذا جهلت الفرق بينهما ... فدونك فاسألي
لا أبتغي غير الفضيلة ... للنساء فأجملي

التحقت باحثة البادية بالرفيق الأعلى ليلة الخميس الرافق ١٧ من أكتوبر سنة ١٩١٨ بعد أن أدت رسالتها أحسن الأداء ، وقدمت للمرأة المصرية أجل الخدمات ، ومهدت السبيل لمن أتين بعدها فسرن في طريق معبدة ، ونال بعض ما لهن من حقوق في الحياة الاجتماعية ، فمن حقها عليهن أن يخلدن ذكراها ولو بالاكتتاب في مشروع نسوي نافع باسمها أو إحياء آثارها الأدبية ...

عبد الجوار سليمان

المدرس بمدارس سوهاج

الأجوبة المسكتة

على لسان القرآن والأدب والحكمة

موسوعة مجادلات ومحاورات ومصارعة أفكار تلقن الناس الحجة البالغة وتعلمهم الحكمة وفصل الخطاب.

تأليف أحمد صابر بك

يطلب من مكتبات النهضة والهلال ومصطفى الحلبي بثلاثمائة صفحة كبيرة.

ثمنه ٤٠ عدا أجرة البريد